

الحرية في زمن المراقبة الرقمية

في عصرنا الرقمي الحالي، أصبحت بيانات الأفراد هي المورد الأهم و«أعلى من النفط أو الذهب». كل نقرة تقوم بها عبر الإنترنت، وكل محادثة تُجريها عبر التطبيقات المجانية تُحول إلى مادة خام للشركات والحكومات لتبؤ سلوكنا وتوجيهه. فتشير تقارير حديثة إلى أن عدد مستخدمي الإنترنت في العالم العربي وصل إلى نحو 348 مليون شخص، أي حوالي 70.2% من السكان، مع 228 مليون على وسائل التواصل الاجتماعي (Shankar, 2025). هذا الانتشار الواسع للإنترنت في المنطقة يعني أن شركات التكنولوجيا والحكومات تملك كميات هائلة من البيانات عن مواطنينا، ما يثير السؤال: هل نحن فعلاً أحرار إذا كان بإمكان هذه الخوارزميات التنبؤ بخياراتنا قبل أن نقررها؟

تشير إحصائيات حديثة إلى أن الغالبية العظمى من تطبيقات الهاتف الذكي تجمع بيانات المستخدم لأغراض تجارية. فمثلاً، يسجل 72.6% من تطبيقات نظام iOS بيانات خاصة بالمستخدم، وبشكل لافت فإن التطبيقات المجانية تتبع المستخدمين أربع مرات أكثر من التطبيقات المدفوعة (Howarth, 2025). وعلى نطاق أوسع، يقدر أن 80% من جميع التطبيقات تستخدم البيانات الشخصية في أغراض تجارية (Smith, 2025)، مثل عرض الإعلانات الموجهة أو الترويج لمنتجات أخرى. ومن السياق نفسه، ارتفع متوسط العائد الإعلاني لكل مستخدم على جوجل من 1.07 دولار في 2001 إلى 36.20 دولار في 2019 (Smith, 2025)، مما يعكس القيمة المتزايدة التي توليه الشركات لمعلومات المستخدمين الرقمية.

كل ذلك يوضح أن تكفة الخدمات «المجانية» هي غالباً بياناتنا وحياتنا الخاصة. بعبارة أخرى، وفق منطق الاقتصاد الخفي للبيانات، ليست المنتجات الرقمية مجانية، بل نحن أنفسنا «المنتج»، حيث تدفع الشركات تكفة تقديم الخدمة من خلال جمع البيانات وتحويلها إلى أرباح عبر الإعلانات والاستهداف الدقيق. هذا النموذج يجعل الخصوصية ثمناً مباشرًا للراحة والسرعة، ويحول العلاقة بين المستخدم والمنصة إلى علاقة تبادلية غير متوازنة.

من هنا يظهر التساؤل: هل كانت حرّيتنا كأفراد شيئاً نسيناه حين أسلمنا اتفاقيات الشروط السياسية والاجتماعية التي تقدمها تلك الشركات؟ في الواقع، يُعتبر نموذج «الإختار والقبول» الإطار القانوني المقبول لحماية الخصوصية في كثير من الدول الغربية، حيث تُعطى للمتابع خيار قراءة شروط الاستخدام والموافقة عليها. إلا أن الدراسات تُظهر أن معظم المستخدمين لا يقرؤون هذه الوثائق الطويلة والمعقدة. في استطلاع لـPew (2023) على الأميركيين، اعترف أكثر من نصف المستخدمين (56%) أنهم غالباً ما يغضبون على «موافق» دون قراءة سياسة الخصوصية، حتى أن 61% يرون هذه الوثائق غير فعالة في شرح طريقة استخدام بياناتهم (Pew Research Center, 2023). وهذا يشير إلى وهم الاختيار: فنحن نظهر موافقة شكليّة على تبادل معلوماتنا دون فهم حقيقي لما يتضمنه العقد بيننا وبين التطبيقات. ويمكن القول إن اعتمادنا الكامل على هذا الإطار في حماية الخصوصية هو وهم..

وفي مقابل الموافقة الظاهرة على مشاركة البيانات، هناك نوع آخر من المراقبة يتم بصورة خفية. فالكثير من مصادر جمع البيانات لا تظهر للمستخدم أبداً: من أجهزة تتبع الموقع في الهاتف إلى كاميرات المراقبة في الشوارع وخوارزميات التقسيب

عن الأنماط في سجلات التصفح. هذه الفجوة تُبرز الفارق بين المراقبة الاختيارية –التي «نافق» عليها رسمياً عبر النقر (ولو بشكل سطحي) على الشروطـ والمراقبة القسرية التي تحصل دون علمنا ولا موافقتنا. ففي الأولى يظن الشخص أنه يملك الخيار حتى ولو لم يمارسه فعلياً، أما في الثانية فحرمانه من الخيار كامل لأن البيانات تُترنّع من حوله بصمت .(Lynch, 2022)

خلاصة القول، الحرية في زمن المراقبة الرقمية تبدو معقدة وغير مطلقة. فالقدرة الخوارزمية على قراءة أنماطنا سلوكنا بفعالية تعيد ترسيم حدود الإرادة الفردية. وبالمثل فإن «الخدمات المجانية» تفرض ثمناً غير نقي: معلوماتنا الخاصة تحول إلى عملة توجه الخطابات الإعلانية والسياسات العامة. وبينما نتظاهر بالموافقة الاختيارية على مشاركة بيانتنا، تبقى أدوات التتبع الخفية تُرتب معاً دون إذننا. في ضوء ذلك، لم تعد حرية الفرد مجرد مسألة قانونية أو فلسفية، بل أصبحت أيضاً قضية نقدية وسياسية؛ فالوعي العالمي المتامٍ بخطورة الأمر يدفع نحو المزيد من القوانين والتنظيمات (يذكر أن 71% من دول العالم لديها تشريعات لحماية الخصوصية (Smith, 2025))، لكن فعالية هذه الإجراءات مرتبطة بقدرة المجتمع على تحدي اقتصادات المراقبة وجعل التكنولوجيا في خدمة الإنسان، لا العكس. في نهاية المطاف، يظل السؤال مطروحاً: هل يمكننا أن نعيد تعريف حرية التعبير بما يتاسب مع هذا الواقع الجديد، أم سنستسلم لتوقع الخوارزميات وقيود الشفافية المحدودة؟ الإجابة تبقى ضرورية في قلب النقاشات الأكademية والسياسية الراهنة حول مستقبل الحقوق الرقمية.

المراجع

- Connolly, L. Y., Lang, M., & Giboney, J. (2025). *A study of the privacy paradox amongst young adults in the United Arab Emirates*. SSRN. <https://ssrn.com/abstract=5166978>
- Howarth, J. (2025, June 5). *23+ Alarming Data Privacy Statistics for 2025*. ExplodingTopics. <https://explodingtopics.com/blog/data-privacy-stats>
- Lynch, J. (2022, June 29). *Iron net: Digital repression in the Middle East and North Africa*. European Council on Foreign Relations.
- Mühlhoff, R. (2021). Predictive privacy: towards an applied ethics of data analytics. *Ethics and Information Technology*, 23, 675–690.
- Nicolas. (2025, October 26). *The birth of surveillance capitalism: how Cambridge Analytica exposed the business of human data*. CambridgeAnalytica.org.

Pew Research Center. (2023, October 18). *How Americans view data privacy: Tech companies, AI, regulation, passwords and policies*.
<https://www.pewresearch.org/internet/2023/10/18/how-americans-view-data-privacy>

Shankar, A. (2025, April 19). *Internet penetration reaches 70% in the Arab world finds Orient Planet Research*. Intelligent CIO Middle East.

Smith, G. (2025, May 1). *80+ Top data privacy statistics for 2025*. StationX.

Jamil, S. (2021). The monitored watchdogs: Journalists' surveillance and its repercussions for their professional and personal lives in Pakistan. *Journalism Studies*, 22(7), 878–895.